هل المأزق العراقي ثقافي؟

يمكن للمرء أن يقرأ كتاباً عن الحداثة وما بعدها على ضوء شحيح ينبعث من فانوس، ليس هذا من باب الطرافة، لأن التقنية لا تقف حائلاً دون الوصول إلى آخر مؤلفات الفكر والأدب، هذا ما تعلمناه في العراق، لذلك فنحن نعرف ما يجري من متغيرات ثقافية كلّ بحسب قدراته وثقافته،، وبوسع الشاعر عندنا والرسام والقاص أن يمضي في محاكاته وابتكاراته إذا أسعفته الموهبة والدراية، لأن العالم أصبح واحداً بسبب وسائل الاتصال التي اختزلت الكثير من المسافات، أقول الكثير ولا أقول جميع المسافات، لأن هاهنا إشكاليات تتعلق بالسياسة والاقتصاد والتاريخ أيضاً،

ناظم محمد العبيدي

إلا أن طبيعة الموضوعة التي نحن بصددها تقتضي شيئاً من الإيضاح، فليس من المناسب القفز على بعض الحقائق الموضوعية، ولطالما رأيتني أقف متسائلاً أمام المشكلة التي أراها ماثلة حين أقرأ أية دراسة عربية تتحدث عن أوضاع ثقافية أو اجتماعية أو سياسية كونها تتجاهل الفجوة الحضارية التي نعيشها، والمقصود بـ(هنا) عالمنا العربي والعراقي بشكل خاص، لأن ما جرى ويجري في العراق وبعيداً عن الإسقاطات السياسية التي تحاول تلوين الصورة الموجودة تبعاً للأيديولوجيا المتبناة أو المصالح قد أصاب العراق بالإضافة إلى ما يشترك به مع بقية الدول المجاورة من إشكاليات بمعوقات حقيقية وتشوهات شملت مختلف جوانب الحياة، وهذه المقدمة ضرورية لفهم تأثيرات الحداثة وما بعدها، لأن هذين المصطلحين يتضمنان بالضرورة حالة من الحراك الحضاري والتطور الذي يبدو مركزه الحقيقي في دائرة الغرب، وفي الدول الصناعية الكبرى تحديداً، فهناك يقع الثقل الثقافي والسياسي والاقتصادي وذراعهما المتمثل بالقوة العسكرية القادرة على كتابة التاريخ داخل خارطة العالم، والحديث عن مصطلحي الحداثة وما بعد الحداثة لابد أن يثير جملة قضايا عندنا، ويشير إلى مفارقات واضحة أولها، هل شهدنا الحداثة حقاً لكي نتحدث عما بعد الحداثة؟ الجواب كلا طبعاً إذا كان حديثنا عن جوهر الحداثة وما بعدها وفي المجالات المختلفة للحياة، إلا أن هناك نواحي إنسانية وإبداعية – كما أشرت في البدء – تعكس شيئاً من التواصل مع ما يجري في الخارج، أي أن سمة الاتصال مع العالم المعاصر الذي شهد الحداثة وما تلاها استطاع أن يترك أثراً لا يمكن تجاهله، وهذا لا يعني طبعا أن المبدع في مثل هذه المجالات يفعل ذلك داخل مناخ ملائم، بل على العكس إن ما يجري هو القفز على معطيات الواقع والتطلع إلى نقطة تضيء بعيداً، حيث مركز الأحداث العالمية، وما اصطلح على تسميته في كتب السياسة والثقافة بالمركز، فقد ظهرت كتابات تحمل خصائص الحداثة وما بعدها، وفي الفن التشكيلي توجد محاولات في هذا المجال، إلا أن هذا لا ينفي أن ما يحدث هو عملية لحاق وتدارك بجهود فردية، تصنعها ثقافة الفنان وقدراته المعرفية، أما الصورة العامة والمستوى السائد فهو السكون عند نقطة ما، حالة من الذهول والحيرة، لأن ما بعد الحداثة مصطلح يشير إلى جملة معطيات ومتغيرات لم يتسن حتى للفكر الغربي أن يدرجها بشكل دقيق وشامل، وظلت المحاولات توصيفية تقترب من حقيقتها التي تستعصي على الحصر والتحديد، فإذا كانت الحداثة قد توضحت ملامحها طيلة زمن طويل نسبياً، فضلاً عن نتاجاتها التي يدين لها العالم بكل ما يتمتع به من تقنيات وتطور علمي، فإن ما بعدها لم يصطنع الكثير مما يشار إليه، بل إن ثمة ردود لا يستهان بها على مفكري ما بعد الحداثة، وتبدو قوة ما بعد الحداثة كثقافة ونمط فني في أنها تعود إلى الماضي بروح ساخرة،في حين كانت الحداثة تتمنى دون طائل أن تلغي الماضي كما يقول (إمبرتو إيكو)، ويضيف أن ما بعد الحداثة هي في جوهرها تكنيك ونبرة، ووفقاً لهذا التصور يمكننا أن نشير إلى الكثير من الأعمال الأدبية التي كتبت في هذه المرحلة، ونعني بها تلك التي حفلت بروح التهكم وطريقة التعامل مع الماضي والطرائق القديمة في الكتابة، ولا يسعنا ونحن نتحدث عما بعد الحداثة أن نتجاهل تلك الحساسية التي لم تعد تستقبل الكثير من الكتابات بذات الروح التي كانت سائدة، لأن هذا يشير كما يقول (إمبرتو إيكو) إلى تغير في النبرة بل والمزاج المفعم بالسأم، وكأن أدب وفن ما بعد الحداثة يبحثان عن منطقة أخرى خارج الأفق المتاح، تحركهما روح التهكم والضيق بكل ما كان سائداً ومستهلكاً، فإذا كان أنصار الحداثة يحاججون الحداثيين الجدد بما أنجزته حقبة الحداثة فإن المنظرين لما بعد الحداثة يشيرون إلى ما أغفلته الحداثة من جوانب أخرى ظلت بعيدة عن الأدب والفن، ويرون أن إثارة السخط بالطرائق الجريئة أفضل من التوقف عند لحظة ومحطة زمنية لم تعد تلائم ذائقة المتلقي المعاصر، وفي أدبنا العراقي مازال الوقت مفتوحاً لتجارب قادمة، لأن ما يجري في الخارج من متغيرات ينتمي إلى بيئات معينة، ويحتاج إلى زمن أحياناً لكي يحدث تأثيره في النصوص الإبداعية، ولذلك مبررات لا يمكن تجاهلها، فمن طبيعة النصوص أنها تتصارع في لعبة تنافس وتجاوز ولا تصنع من العدم، وبرغم الانفتاح والتواصل الذي يحدث،إلا أن هناك مناخاً حضارياً وثقافياً يخيم بلا شك على كل نشاط شئنا أم أبينا، بيد أن ذلك لا يمنع من أن تجري قفزات متمردة تجترح لذاتها خطاً مغايراً يستمد من هواء الخارج مبررات وجوده، وهذه إحدى سمات الروح الإبداعية التي حفّزت الحداثيين من قبل.

إن التناقض الحاصل في حياتنا بشكل عام والثقافي بخاصة في عالمنا الثالث أننا لا نملك تقديم شيء باستثناء النفط! وإذا شئنا الدقة وحتى لا نقع في خطأ التعميم أن نفراً قليلاً من المبدعين في مختلف المجالات هم الذين يذكر العالم الأوروبي أن في الشرق عقول أيضا، وبغير هؤلاء فنحن مجتمعات ترقد في غيبوبة تاريخية، يعزز هذا حكومات تمارس الجهالة منذ عقود، وتسببت في حصول فجوة حضارية كبيرة، وكيف يمكن أن تنهض عندنا صحوة حقيقية وشعوبنا لا تزال تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة؟ فليس غريباً على شعوب العالم الثالث المبتلاة بآفة الفقر والانقطاع عن مؤثرات الحضارة الحديثة أن تعيش حالة التناقض، لأنها لا تزال تمارس واقعياً طرائق القرون الوسطى، وقبل قرن أشار ماركس إلى حقيقة أنّ الأفكار ليست هي التي تصنع الحياة فقط، بل إن الحياة هي التي تصنع الأفكار أيضاً!

سفينة الساسة وبوصلة الوطن

إيمان الغزي

هناك مثل إنجليزي شهير يقول: (ما من شيء في الحياة إلا وسيركب في قارب السياسة!) أي أنّ السياسي في نهاية المطاف يتحمّل مسؤولية جسيمة لأنه قائد سفينة النجاة في بحر الحياة الهائج، فإما يصل بسفينته إلى موانئ السعادة أو يظلّ يتخبّط في دروب وطرق ستنهك السفينة وراكبيها دون أن تصل بهم سوى إلى محطات البؤس والشقاء والأمل الفارغ، ومعنى هذا المثل كما هو واضح من مداليله إنّ الأمم الأخرى جعلت فن السياسة مرادفا لفن الإدارة الناجحة، فالسياسي الناجح هو الإداري الناجح وهو الوطني المخلص الذي تنعدم مصلحته الشخصية أو الفئوية وتتلاشى إزاء مصلحة البلد واعتباراتها المستقبليّة، والمجتمع الذي يوكل أمر قيادته إلى جهة ما هو أشبه بركّاب السفينة في يوم عاصف، أمرهم ونجاتهم موكولان بمن وثقوا به فأسلموه رقابهم وقيادهم!

ولو تأملنا ساسة العراق وسياساتهم – مع استثناءات بسيطة – في فترة تجاوزت النصف قرن لوجدنا من خلال الواقع الذي نحن عليه الآن مثالا يفوق كلّ الأمثلة في العالم على سوء التدبير وتغليب المصالح الخاصة الضيقة على مصلحة الوطن الكبرى وعلى رفعته وكرامة مواطنه، فمن الانقلابات الدموية إلى الاستبداد والانفراد بالسلطة، ومن التنكيل بالمواطن البسيط إلى العبث بمقدراته وخيراته ومصيره، ومن حروب الجور والاستنزاف إلى الحصارات التي غيّرت البناء السايكلوجي للفرد وللمجتمع، مما أدّى بالتالي بعد كلّ ذلك إلى تعطيل الدور الحضاري لهذا البلد العريق، وتخلّف إنسانه وشعوره بالضياع واليأس، ذلك الإنسان الذي أبدع بالأمس مع قلة الإمكانات الأبجدية والكتابة، واخترع العجلة وسنّ القانون البشري وعمّر الأوطان بشواهد لا تزال قائمة تحكي روعة العقل المبدع وذوقه الرفيع مع تقادم القرون الطويلة.

إنّ العراق كما هو معروف يضمّ بين ظهرانيه ثاني احتياطي للبترول عالميّا، وهو البلد الوحيد بالأرض الذي حباه الله بالخصب والخير والماء والنماء إلى جانب ثرواته الهائلة وإلى جانب اشتماله على طاقات بشرية هائلة تزيد على الثلاثين مليون نسمة، أي أن مقوّمات النمو والتطور هيّأها له ربّ العزّة، وأعني بها تلك الثلاثة المشار إليها (المال، الماء، البشر) وهي عماد كلّ تطور وكل نهوض حقيقي، لكنه البلد الوحيد في العالم – وتلك من أغرب المفارقات – الذي تأتيه بواخر القمح والرز من استراليا وتساق له الطماطم من دول الجوار، وتعبّأ له الأسماك المعلبة في فيتنام والمينمار، ويؤتى له بالبسكويت من جزر القمر، وحتى التمر –وهذه أم المصائب – صار يقطف لنا من دول الخليج التي كانت بالأمس رملاً وملحاً أجاجاً!

فما الذي ينقصنا لكي نقف بين الأمم رافعي الرؤوس مفتخرين بواقع حاضر لا بماض تليد؟ والجواب – بالطبع – لا شيء سوى إدارة سياسية غيورة وطنية ومخلصة لا تخشى في ما ينفع الناس لومة لائم، وهو ما نخشى أن يظل مجرد أحلام وأوهام يحلم بها المواطن البسيط الذي أنهكته الحروب والحصارات، في ظلّ ما نراه من خلافات الساسة واختلافاتهم على أبسط الأمور، وكأن لم يكن هناك دستور يُحتكم إليه ولا برلمان تُفوّض إليه الأمور، ولا عهود ولا مواثيق تنظم العلاقات بين الجميع!

ولا ينقصنا إلاّ سياسي محنّك ومثقف يحسب أنّ الله في كلّ صغيرة وكبيرة يراه، فلا يسعى إلى تنصيب نفسه وصيّا على الناس أو قائدا للمجتمع والأمة، ولا يريد أن يكون شخصه رسولا للحقيقة والهداية، أو ملهما فذّا، لأن هذه الشعارات قد تُرجمت على أرض الواقع فشلا ذريعا وإحباطا مميتا لخمسة قرون مضت. لا ينقصنا إلاّ سياسي يتّخذ من مقولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (إنّ إمرتكم لا تعدل عندي عفطة عنز حتى أقيم عدلاً أو أنتصف لمظلوم) شعاراً له فلا يطلب السلطة لذاتها، وإنما لأنّها غاية إصلاح ووسيلة إسعاد لملايين المحرومين والضعفاء، وزلفى بعد ذلك من ربّ العالمين!ولو أردنا التفكير في ما أوصلنا إلى هذه المحطة البائسة وإلى هذه المنزلة التي تُشفي صدر عدوّنا وتُشمت بنا كلّ من لا نُرضي له هوى ولا نُعجب له عين؟

أليس هو قارب الساسة البائس الذي امتطوه بالأمس راغبين بأمجاد زائفة وطامعين بوجاهات دنيوية زائلة، فأوصلونا إلى محطات الشقاء والتردي والتخلّف، ثمّ رحلوا غير مأسوف عليهم إلى مصير أسود، بعد أن تركوا شوارعنا أبشع منظرا من شوارع الصومال، وبعد أن جعلوا الملايين من فقرائنا يحلمون بمنازل يمتلكونها ولو كانت كمنازل أهل كردفان، مع أنّهم يمشون وتحت أقدامهم كنوز الدنيا مذخورة لهم إكراما من ربّ العالمين! والأدهى من ذلك أنهم اخترعوا لنا أماني وأحلاما بوطن بديل – ولو كان منفى – عن عراقنا الحبيب الذي باركه الله بنعم لا يحصونها، أولها نعمة الإسلام وآخرها أنهار تجري بين يديه، وكنوز مخبوءة تحت قدميه! إنّ توجيه سفينة الساسة للوجهة الصحيحة مسؤولية بأعناق الجميع، وإنّ مراقبة بوصلتها كي تشير دائما باتجاه مصلحة البلد ومصلحة أهله الطيبين، واجب وطني وأخلاقي يتحمّله كل فرد عراقي واع وعاقل، رجلا كان أو امرأة، بغضّ النظر عن دينه وملّته وتوجّهه السياسي، فتجربة الأمس المريرة لو قيّض لها أن تتكرر –لا سمح الله – ستدخلنا سفينة الساسة من جديد بحر الظلمات اللجيّ الذي لن نخرج منه إلى الأبد!

صدام عريس عروبتكم

هناء مهدي

مع الاعتذار للشاعر الكبير مظفر النواب، أرى أنه كان مخطئا حين ظن أن لبيت المقدس قومية تحميه متناسيا أن شعراء وأدباء ومثقفي هذه القومية الماجنة لا يحمون غير كراسي الساسة، ولا يبجلون إلا من يجلد ظهورهم بسياط الذل.

لذا لا غرابة أن يمنح اتحاد الأدباء العرب جائزة (شاعر القدس) لشاعر النظام المباد حميد سعيد، وليس لمظفر النواب رغم أنه رشح من قبل اتحادي الأدباء والكتاب العراقي والمصري اللذين لهما ثقلهما وأهميتهما في المنجز الثقافي العربي، في حين من رشح حميد سعيد لهذه الجائزة رابطة الكتاب الأردنيين واتحاد الأدباء الفلسطيني اللذان لا وزن لهما في الساحة الثقافية العربية، لا غرابة أن تبرر الرابطة الأردنية ترشيح حميد سعيد لمجرد أنه "يقيم في عمان منذ احتلال العراق، وأنه يعد واحدا من رموز شعر المقاومة في العراق والوطن العربي، وعندما تتبنى الرابطة ترشيح شاعر عربي كبير للجائزة فهذا يعبر عن هويتها القومية العروبية".

فعلا لابد أن تكون هذه هي مبررات ومعايير الفوز بالجوائز العربية، مناهضة تحرر الشعوب من الأنظمة الدكتاتورية وانتصارا لحمية الجاهلية والعنصرية العرقية، وكأن النواب من قومية أخرى، وهو حقا من قومية أخرى كونه لم يسجد بين يديّ ملوك الصحراء ولا سكت على خزيهم وجبنهم، وعليه كان لزاما أن يفوز شاعرا مثل حميد سعيد، ولربما سيفوز بهذه الجائزة في دورتها المقبلة رعد بندر أو غيره من شعراء أم المعارك.

على الرغم من المكانة الكبيرة للشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش ودوره الريادي في نظم القضية الفلسطينية في أبيات شعر كانت وما زالت غاية في الروعة والإثارة، إلا أن التأثير الأكبر والشعر الأكثر فاعلية في تأجيج المشاعر لنصرة القضية الفلسطينية كان لشاعرنا مظفر النواب، حتى أصبح عنوان قصيدته الشهيرة (القدس عروس عروبتكم) أشبه بلافتة يرفعها كل من يريد لفلسطين خلاصا من مصيرها المحتوم.

كان النواب وما زال شاعرا ثائرا لكل شعب محتل وكل إنسان مضطهد، هو إن جاز التعبير شاعر إنساني عابر للحدود، في شعره قضية تبثها قصائده بلوعة مسموعة الأسى، وبالإضافة إلى ذلك فهو رجل مقاومة حقيقي قاتل بشعره النظام المباد معلقا مصيره بحبل مشنقة تدلى طويلا قبل أن يلتف في العام ٢٠٠٦ حول رقبة الصنم الفاشستي الذي أصدر هذا الحكم ضد النواب.

هناك أمر لا يقل غرابة عن استبعاد النواب من الجائزة ومنحها لحميد سعيد، وهو موقف اتحاد الأدباء والكتاب العراقي، الذي أصدر بيانا متناقضا يهنئ فيه حميد سعيد بفوزه بالجائزة وفي الوقت نفسه اتهم اتحاد الأدباء العرب بأنه اعتمد معيارا سياسيا وليس نقديا!.

محزن أمر هذه الأمة التي ضحكت من جهلها الأمم، فهي في تخبطها النخبوي هذا لن تخرج من قمم الدكتاتورية والتبعية للحاكم بأمر الله والسوط وكيس الدراهم التي كان الدكتاتور يتصدق بها على أدباء وفناني ومثقفي كابونات النفط العراقي، والآن الخليجي.

أين الاستقرار السياسي؟

يعقوب جبر الرفاعي

لا استقرار امني إلا باستقرار سياسي

أزمات تتلو أزمات هذه هي الصورة الواضحة لواقعنا السياسي في العراق منذ عام ٢٠٠٣ على أقل تقدير وحتى يومنا الحاضر، والسبب أن القرار السياسي لا يصدر من جهة واحدة فقط بل يصدر من عدة جهات، أما المواطن فقد بلغ به اليأس مأخذا عظيما لم يعد يملك الأمل في حدوث تغيرات جذرية ملموسة، فمثلا ملف الخدمات ما يزال دون مستوى الطموح، بما فيه توفير التيار الكهربائي بصورة تسد الحاجة، والملف الأمني أيضا ما يزال دون مستوى طموح المواطن، وفوق هذا وذاك ينشغل السياسيون منذ سنتين بافتعال الأزمات السياسية، فلم يعثروا على حلولها حتى يومنا هذا، ويبدو بحسب المعطيات أنهم لن يعثروا على الحل أبدا؛ مع اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية، فما تبقى لانطلاقها هو سنة ونصف السنة فقط.

السياسيون منهمكون في الصراع السياسي بحثاً عن السلطة والثروة، وكل كتلة تطمح إلى الحصول على مساحة أوسع في سلم السلطة والثروة، فهل نحن نعيش ضمن ميدان دولة تعتاش على الصراع السياسي؟ لنفترض أن الصورة معكوسة؛ دولة بلا صراع سياسي هل يمكن أن نتصور نفس السياسيين الحاليين يديرون شؤونها؟ لا أعتقد ذلك،فالدولة التي تخلو من الصراع السياسي وتجنح إلى التنافس السلمي والحلول المشتركة ستضم سياسيين ناجحين من نمط آخر؛ همّهم العمل المشترك لبناء الدولة وتفعيل مشاريع البناء السياسي والعمراني، أما السياسيون الحاليون فهم ليسوا أكفاء في مجال إدارة شؤون الدولة بل هم انتهازيون ووصوليون يضيعون الوقت ويهدرون موارد الدولة، في حين أنّ هنالك كمّا هائلا من المواطنين يعيشون حياة بائسة لا نهاية لها إلا بتولي زمام أمور الدولة من قبل سياسيين كفوئين ومخلصين يخافون الله ويضعون نصب أعينهم معاناة المواطن قبل أي شيء.

الوضع السياسي الحالي متذبذب وغير مستقر لا وضوح لصورته والسياسيون بأجمعهم لاأولويات لديهم، وحتى لو أعلنوا عبر تصريحاتهم أن الوضع السياسي المتوتر ذاهب إلى انفراج واستقرار لكنها مجرد أقاويل لا أساس لها إطلاقا، تنمّ عن الفشل الذريع من قبل الجميع. يتحدث السياسيون عن الفساد الإداري والمالي بإسهاب متناسين أنهم في قمة هرم الدولة، فهل يمسك المواطن المسكين زمام الأمور في الدولة؟ أم يمسك به السياسيون؟ فلماذا يطلقون التصريحات هنا وهناك بمناسبة وغير مناسبة ناقمين وناقدين؟ منهم من ينتقد السلطة التشريعية وهو جزء منها، ومنهم من ينتقد الحكومة وهو أحد أركانها، ومنهم من يتحفظ ويتحاشى إطلاق أي تصريح خوف إثارة حفيظة الآخرين.

هلُ يعقل أن ينتقد السياسيون العملية السياسية وهم جزء منها بل هم من يملكون مفاتيحها؟!

أما المواطن فهو المتضرر الأكثر تضررا مما يجري من أحداث لها انعكاساتها على واقعه المزري؛ حتى بلغت قناعاته درجة الإحباط المطلق بالنسبة للحراك السياسي، فالسياسيون يتحركون منذ عام ٢٠٠٣ داخل حلقة مفرغة يبدأون من نقطة لينتهوا في نفس النقطة، فمثلا كل واحد منهم ينتقد المحاصصة وهو من باركها، كلهم يدعون إلى التهدئة وهم من يمارسون عملية تفجير الأوضاع، كلهم يبدون حرصهم على المصالح العليا للبلاد وهم من يخلّون بميزان هذه المصالح،فهل أضاعوا جميعا الوجهة الصحيحة للبوصلة السياسية؟